

فيا بعد ، حين غدت دوقه فيرارا تريته ، باعتباره أخيها ، هو أشد ما في حياة اسكندر السادس وحياة شيزاري غموضاً وإيلاماً . والواقع أن لوكريسيا قد وضعت في سنة ١٤٩٨ ولدا يتفق مولده بالضبط مع تفاصيل الرسومين البابويين ، وتوجد مراسم أخرى في محفوظات الفاتيكان تنسب هذا الولد الى شيزاري . يقول جبهارت ، فهذا الاعتراف المزدوج بالابوة ، وهذا التناقض ، مما يسمح لنا بالإشارة الى عناصر هذه المسألة المحزنة دون أن نحاول بسطها

وبعبارة أخرى يرى جبهارت أن هذا الغلام هو ولد اسكندر السادس من ابنته لوكريسيا ، أو ولد شيزاري من أخته ؛ وأن ما كان ينسبه جان سفورزا الى زوجته عندئذ من أنها كانت خلية أبيها ، خلية أخيها ، إنما هو حق صراح

بيد أن العلامة فونك برنتانو يترض على هذا الايضاح بشدة ، ويقول إن بوركارت الذي يعنى في مذكراته بكل ما يتصل بالفضائح البابوية وبالأخص بفضائح لوكريسيا لا يشير الى مولد هذا الغلام بشيء ؛ وليس معقولاً أن تعنى لوكريسيا بتربية غلام غير شرعي ينسب إليها في بلاط زوجها دوق فيرارا ، وهو أمير رفيع الخلال والكرامة ؛ وكيف تفعل ذلك ، وقد تركت ولدها الشرعي رودريجو لعناية جده ؟ ويرى هذا العلامة أن مصدر الشائعات كلها هم سفراء البندقية لدى الفاتيكان ، وقد كانت مهمتهم الحقيقية أن يشهروا باسكندر السادس وأسرته وكل ما يتصل بها^(١) ويرى بعض الرواة المعاصرين أن هذا الغلام إنما هو ولد البابا من خليلته جوليا فارنيسي ؛ ويرى آخرون أنه ولد لوكريسيا من وصيف البابا المدعو بيروتو ، وقد عاقبه البابا بأن زجه الى ظلام السجن

وعلى أي حال ، فإن في هذه الروايات والشواهد كلها ، ما يسبغ أشد الريب على خلال لوكريسيا بورجيا ؛ تلك الفتاة الطروب الفاتنة ، التي كانت تخوض بلا انقطاع حياة فياضة بالفتنة والغواية ، والتي كان جمالها الساحر يثير حولها ضراماً من الشهوات الخطرة ؛ وما يسبغ أشد الريب على علاقتها بأبيها الخبر الفاسق الذي يسحق تحت قدميه كل مبادئ الأخلاق والحشمة ،

(١) برنتانو في كتابه السالف الذكر ص ٩٢ وما بعدها

٣ - لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الأُممبار

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وينكر بعض الباحثين المحدثين هذه الروايات المثيرة ، ولا يرون فيها سوى حديث خرافة أو على الأقل أحاديث مفرقة لا تؤيدها أدلة مقننة ؛ ويستبعدون بالأخص أن تمثل لوكريسيا بورجيا في مثل هذه الحفلات العاصفة الشائنة الى جانب أبيها وأخيها ولكن الرأي الغالب يميل الى الاتهام ؛ ويرى في أقوال بوركارت ما يؤيد تهمة غزبية أخرى تنسب الى لوكريسيا هي عشرة المحرم التي أشرنا إليها ؛ والتي تزعم أنها كانت خلية أبيها ، خلية إختوتها وإليك واقعة خطيرة يستشهد بها الاتهام . في أول سبتمبر سنة ١٥٠١ ، أصدر البابا اسكندر السادس مرسومين مازالا يحفظان حتى اليوم في محفوظات مودينا ؛ في أولهما يعلن البابا بأن ابنه شيزاري قد رزق غلاماً غير شرعي يدعى جوفاني في نحو الثالثة من عمره ، وأنه يرثه من عيب هذا المولد غير الشرعي ، ويباركه ويعتبه ابناً شرعياً لولده شيزاري ، يتمتع بكل حقوق الورثة الشرعية ، وينتم عليه بلقب دوق نبيي ؛ وفي المرسوم الثاني يقرر البابا ، أنه وإن كان يرى هذا الغلام ويرفعه الى مرتبة الولد الشرعي ، فإنه يقرر بأن عيب هذا المولد لا يرجع الى ولده شيزاري بل يرجع إليه هو (أي البابا) وسيدة حرة (من قيود الزواج) ، وإن كل ما يؤول اليه من الحقوق والزايا طبقاً للمرسوم السابق يؤول اليه أيضاً بصفته ولد البابا وليس ولد ولده شيزاري ؛ أو بمباراة أخرى يعترف البابا في هذا المرسوم بأن هذا الطفل هو ولده وثمرة غرامه

فمن هي أم هذا الطفل « الروماني » ؟ ومن هي هذه السيدة الحرة ، حظية البابا أو حظية ولده شيزاري أو حظيتهما معاً ؟ يقول المؤرخ الكبير اميل جبهارت في الرد على ذلك : إن مولد هذا الغلام الروماني « جوفاني » الذي تولت لوكريسيا

لوكريسيا تعيش معه في وفاق ، يحيط بها حب الأسرة الجديدة واحترامها

يبد أن هذه الحياة الهادئة كانت تكدرها عن بعد مشاريع شيزاري وأعماله ؛ وكان شيزاري يومئذ يخرق أواسط إيطاليا بجيشه ، ويمزق المدو والصديق معاً ، ويحاول بتلك الوسائل الدموية الغادرة ، التي أنارت إجاب مكيايالي وجملته يعتبر شيزاري مثله الأعلى للأمير البارح — أن ينشئ مملكة رومانية كبرى ؛ وكانت لوكريسيا تقاسي في عزلتها من التبعة المعنوية التي تلحقها من جراء هذه المشاريع والأعمال المثيرة

ثم نزل بها مصاب فادح ، ذلك أن ولدها رودريجو الذي كان يربي في نابل في أسرة أبيه ، توفي في الثالثة من عمره (أغسطس سنة ١٥٠٢) فحزنت عليه أجمعاً حزناً ، وأثر الحزن في هيكلها الدقيق ، فلزمت فراشها مدى حين وجداً وأسى ؛ ولكنها لقيت من عطف زوجها ووفائه في عنتها ماخفف لوعة وجدها وعاونها على استكمال صحتها

وهنا يحمل بعض المؤرخين على لوكريسيا ، وبتمهونها بالقسوة والندالة لأنها لم تمن بتربية ولدها بنفسها في حين أنها عنيت بتربية « الطفل الروماني » الذي أشرنا إلى قصته

وكانت لوكريسيا في تلك الفترة تعني بالقراءة ؛ ولم تلق في فيرارا شيئاً من تلك الحفلات المرحية التي كانت كل حياتها في الغاتيكان ، بيد أنها كانت قد عافت هذه الحياة الصاخبة ، وارتاحت إلى حياة العزلة والسكينة

ولم يمض عام آخر حتى فقدت لوكريسيا أبها اسكندر السادس ؛ وكانت وفاته في ١٨ أغسطس سنة ١٥٠٣ في سن الثالثة والسبعين

ويصف لنا المؤرخ جيساردينو وقع وفاته في رومة فيما يأتي : « هرعت رومة بأسرها ، وقد غمرها فرح لا يوصف ، إلى كنيسة القديس بطرس ، تتأمل ذلك الميت ؛ ذلك الشيطان الذي يضطرم طمعاً ويقبض غدرًا ؛ ذلك الذي سمحت قسوته الوحشية ، وجفوره الروح ، وجشمه ، وجبراته المثيرة في إدارة الشؤون المدنية والدينية ، جو العالم كله »

ووقع النيا كالصاعقة على لوكريسيا . ذلك أنها كانت تحب

وأخيها الطاغية الذي كانت الجريعة وسيلته الوحيدة الى كل غاية

نتقل الآن الى صفحة جديدة في حياة لوكريسيا بورجيا

لم يكد يهق زوجها الثاني الفونسو دي بيزيليا ، حتى وضع مشروع جديد بزواجها . وكان المرشح هذه المرة الفونسو ديستي ولد دوق فيرارا وولى عهده ؛ وكان الترشيح لنفس البواعث السياسية التي مازالت على علي اسكندر السادس وشيزاري تلك المشاريع الزوجية المتعاقبة . وقد تردد الدوق وولده في قبول هذه المصاهرة بادي بدء لما يملأه من غدر البابا وولده ، وما توهم به لوكريسيا من شنيع التهم ؛ ولكن سفراء فيرارا قدموا عن لوكريسيا تقارير حسنة وصفت فيها بالحشمة والتواضع والتحفظ وبأنها ضحوك يظلب عليها المرح . وتمت الصفقة على أن يدفع البابا لابنته مهرأ قدره أربعون ألف دوقية ، وأن يتنازل لدوق فيرارا عن بعض الحصون والجهات ، وأن يخفف إتاوته للكنيسة الى أدنى حد . وتم العقد في فيرارا في أول سبتمبر سنة ١٥٠١ ؛ وفي اليوم الخامس احتفل البابا بإشهار زواج ابنته في كنيسة القديس بطرس احتفالاً شائقاً

وفي أواخر ديسمبر قدم وفد حافل من أمراء فيرارا وأعيانها وعلى رأسه فرديناند ديستي أخو الزوج لينوب عنه في استقدام زوجه ، وشهدت رومة مدى أيام سلسلة من الحفلات والمآدب الباذخة والليالي الساطمة المرحية ؛ وفي السادس من يناير (سنة ١٥٠٢) أجريت مراسم الوداع ؛ وغادرت لوكريسيا رومة في ركب غم من الأمراء والفرسان إلى وطنها الجديد فيرارا فوصلت إليها في الثاني من فبراير بعد رحلة باهرة ، واستقبلت بأعظم مظاهر الفخامة والتكريم

وكان مقامها الجديد في قصر قائم موحش لا يتناسب مع مقامها الفخم في رومة ، ولكنها اعتادت حياتها الجديدة بسرعة ، وعاشت في هدوء وبساطة ، ولم تفقد شيئاً من مرحها وبهجتها ؛ وكان هذا المرح الفياض يسحر أهل فيرارا ويجذبهم إليها ، وكان زوجها الفونسو ديستي قتي متين الخلق والخلال ، كثير الخطورة والجد ، يؤثر الاهتمام بالشؤون الحربية ، ولكن رقيق السمائل وافر الثقافة ، يمشق الفن ويحميه ؛ وكانت

لاريوسى وبيترو بمبو

وكانت هذه الصفوة الفكرة تنفى بسحر الدوقة الحسنة
وتشيد بخلالها ومواهبها في تترها وشعرها، وتهدى إليها كتبها
وقصائدها . ومما يذكر أن شترونى الشيخ وصفها في بعض
قصائده بأنها « مجمع عجائب الأرض والسماء كلها ، وليس يوجد
لها نظير في العالم كله »

وكانت لوكريسيا تباد لهم القريض أحياناً ، وتنظم باللاتينية
قصائد ساحرة ، فتذكرى بذلك إعجابهم وهمهم
يبد أن هذا الجو الأدبى الزاهر كانت تكدره سحب الريب
والظنون ، وكان أشد أولئك الشعراء تأثراً بسحر لوكريسيا
بيترو بمبو ؟ وكان بمبو من سادة البندقية ، فتى جميل ، بديع
الخلال والمواهب ، بارعاً في التاريخ والشعر ، وكان من شعراء
بلاط فيرارا ، ومن أخصاء الدوق ، يضطرم نحو الدوقة الحسنة
إعجاباً وحباً ؛ وكان يوجه إليها كثيراً من الرسائل والقصائد في
مختلف المناسبات ؛ ومن ذلك تلك القصيدة التى نظمها باللاتينية
للاشادة بمعبودته

إلى لوكريسيا بورجيا

« أيتها الحسنة ، أنت أجمل من أوربا ، أنت ابنة ملك
آجنور ، ولست مثل هيلانة الاسبارطية التى اختطفها باريس
التروادى ، تسمحين لجمالك أن يطغى على عبقرينك . وإذا قامت
الشعر بالابطالية فأنت ابنة الأرض الابطالية ، وإذا تناولت القلم
لنكتبى القريض بنفسك ، فانه لقريض يجدر بوحى الشاعر ؛ وإذا
راق لك أن تهزى أوتار القيثارة ، فان أمواج نهر بو ترتجف في
عجراها سحراً من غنائك ، وإذا راق لك أن تستلمى الى الرقص
بقدمك الطائر ، فآه ؛ إني لأخشى أن تلفتى نظر إله ما ، فبأنى
لاختطافك من قصرك ، ويحملك الى السماء ، ويحمل منك أيتها
الحسنة الرائعة ، إلهة كوكب جديد »

كان بمبو يشمر نحو لوكريسيا بأكثر من الإعجاب والحب ،
كان يشمر نحوها بهيام مبرح ؛ وكان هذا الهيام يبدو في قصائده
ورسائله مع شيء من التحفظ تمليه عليه الظروف واتقاء الريب .
ذلك أن الفونسو ديستى كان أميراً صارماً عنيف الأهواء ، وكان
يحب زوجه ، وإن لم تكن كل شيء في حياته الغرامية ؛ وكان

أبها رغم كل رذائله وآثامه ، حباً جما ؛ وكانت تشمر بأن هذا
الحنان الفيض الذى كان يقدقه عليها دائماً ، هو ملاذ حياتها
وعزها ، فتمرها الحزن مدى حين . ولكن زوجها وأسرته استقبلا
النبا بارتياح ؛ ولم تزل لوكريسيا أبها منذ غادرت رومة عقب زواجها ،
لأن زوجها كان يابى دائماً أن تزور رومة أو يزورها أبوها
في فيرارا

وقد كانت وفاة اسكندر السادس خاتمة ذلك السلطان الذى
تبوأه آل بورجيا في إيطاليا مدى ثلاثة عشر عاماً ، وكان نكبة
حقة لولده شيزارى . ذلك أن مشاريعه انهارت في الغداة كما ينهار
قصر أسس على الرمال بمد أن فقد ذلك المعصد القوى الذى كان
مصدر كل قوته وبطشه ؛ فالتجأ إلى جوزاتقو دى كروفقا قند
الجيوش الاسبانية في نابل ، ولكنه اعتقله وسلمه إلى ملك
اسبانيا فرديناند الكاثوليكي ؛ فزجه إلى السجن معترماً أن يحاكمه
على جرائمه التى أصابت كثيراً من أفراد أسرته ؛ ولكن شيزارى
استطاع أن يفر من سجنه بمد خطوط حجة ، وأن يلتجئ إلى
حميه ملك نافار ؛ وهناك جرح في إحدى المارك ، وتوفى في
سنة ١٥٠٧ ؛ واختتمت بذلك حياته المدهشة التى اتخذها
الفيلسوف ماكيافيللى مادة لشرح كثير من آرائه في خلال
« الأمير » الأمثل

في يناير سنة ١٥٠٥ توفى هرقل ديستى دوق فيرارا ، خلفه
ابنه الفونسو في الحكم ، وغدت لوكريسيا بورجيا دوقة فيرارا
وكانت فيرارا تجمع في ذلك العهد طائفة من أكابر الكتاب
والشعراء والفنانين يظلمهم الدوق برعايته ، أسوة بباقي القصور
والمواضع الابطالية الزاهرة ؛ وكان ذلك السحر الذى تنفته
لوكريسيا أبنا حلت يجذب إليها هذه الصفوة ، فتجتمع حولها
في ذلك البلاط الزاهر ؛ ونشلمهم الدوقة المستنيرة النابهة بمطعمها
وحمايتها

وكان من هؤلاء الشاعر الشيخ شترونى وولده هرقل
شترونى وهو شاعر أيضاً ، وانتونيو تبالديو ، وكالسكانينى ؛
ونيكوليو كوريجيو وهو من أعظم شعراء العصر ؛ وجاكوبو
كافيشيو أسقف فيرارا ، وهو كاتب قاص ؛ ثم الشاعرين الفتيين

استدراك وتصويب

قرأت في العدد ٩٩ من « الرسالة الغراء » مقال الأستاذ المغربي (بين الفقه الاسلامي والرومانى) فرأيت تطف في الرد على الخواجه ميشيل عند قوله :

« إن أبا حنيفة لم يترف إلا بسبعة عشر حديثاً » وهي غلطة ظاهرة لا يسوغ لأحد أن يفتربها ، لأن روايات أبي حنيفة على تشده في شروط الصحة لم تكن سبعة عشر حديثاً فحسب ، بل أحاديثه في سبعة عشر جزءاً يسمى كل منها بمسند أبي حنيفة ، وقد خرجها جماعة من الحفاظ بأسانيدهم إلى الامام ما بين مقل منهم ومكثر حسبما بلغ إليهم من الأحاديث التي يروونها ، وليس بين تلك الأجزاء جزء أصغر من سنن الامام الشافى رواية الطحاوى ولا من مسند الشافى رواية أبي العباس الأصم اللذين عليهما مدار أحاديث الامام الشافى . وقد عني أهل العلم بتلك المسانيد جملاً وتلخيصاً وتخريجاً وقراءة وسامعاً ورواية ؛ فهذا الشيخ محدث الديار المصرية الحافظ محمد بن يوسف الصالحى صاحب الكتب الجليلة في السير وغيرها يروى تلك المسانيد السبعة عشر عن مشايخه ما بين قراءة وسامع ومشاهدة وكتابة بأسانيدهم إلى مخرجها ، وذلك في كتابه (عقد الجمان) . وكذا يروونها بطرق كثيرة محدث الديار الشامية الحافظ شمس الدين بن طولون في (الفهرست الأوسط) عن شيوخه سماعاً وقراءة ومشاهدة وكتابة بأسانيدهم كذلك إلى مخرجها ، وذاتك الحفاظان هما زينا القطرين في القرن العاشر الهجرى ، وكذلك حملة الرواية إلى قرننا هذا ممن لهم عناية بالسنة . وما تلك المسانيد والكتب يبيده عن متناول أهل العلم ، بل بعضها مطبوع في الهند . . . إلى غير ذلك مما تراه مفصلاً في (شروط الأئمة الحجة للجازى المطبوع سنة ١٣٤٦)
أبرأسة

يحيط الدوقة بسياج منيع من غيرته وصرامته ، ويرد العواطف التوثبة الى سحرها وجمالها فى سهادها

بيد أن الروايات المعاصرة تقول إن لوكريسيا كانت تقابل حب بعبو بمثله ، وأن علاقتها الفرامية اتصلت مدى حين أثناء إقامة الشاعر في فيرارا حتى سنة ١٥٠٦ ؛ وقد كان طبيعياً أن يتفتح قلب لوكريسيا في مثل هذه الظروف ؛ فقد كان الفونسو ديسى مشغولاً عن حب زوجته بمشاربه السياسية والمسكرية ، وكانت لوكريسيا تتأثر بجمال الشاعر ورقة شمائله وفيض هيامه ؛ وكانت تبادل الرسائل ؛ وما زالت رسالة منها تحفظ في مكتبة امبرواز بيلان ومعها خصلة من شعرها ، ذلك الشعر الذهبي الأشقر الذى كان يبت من حولها النور والسحر . وقد كانت نفحة الوداع . ذلك أن عبور رأى أن يغادر فيرارا فجأة (سنة ١٥٠٦) بعد أن أقام بها ثلاثة أعوام ؛ وقد كان ذهابه نوعاً من الفرار ، ولعله كان انقاء لريب الدوق ويطشه ، وربما رأى الجبان أن الفراق خير وسيلة للسلامة من عواقب غرام خطر

وقد لبث بعبو يكتب معبودة قلبه من أوربينو مقامه الجديد حتى وفاتها في سنة ١٥١٩ . وهناك من يرى أن علاقتى لوكريسيا بالشاعر لم تعد الصداقة الحميمية ، وأن هيامه بها لم يكن سوى نوع من عبادة الجمال والحب الفلسفى

ولاريب أن بعبو كان قفى حريصاً فطناً حين خشى تقمة الدوق . ذلك أن زميله الشاعر الفقى شتروتسى وجد ذات يوم قتيلاً مخضباً بدمائه (يونيه سنة ١٥٠٨) . وطارت الأشاعة في الحال بأنه ذهب ضحية لنيرة الدوق ويطشه ، ذلك أنه كان يهيم بالدوقة ، ويشيد بجمالها في شعره دون تحفظ . ولكن رواية أخرى تقول إن لوكريسيا لم يكن لها في تلك المأساة شأن ، وأن الدوق كان يهوى فتاة حسناء هي بربارة توريللى ، وقد تزوجت من شتروتسى ، فقرر الدوق موته لكي يزيله من طريق هواه

وعلى أى حال فإن الرواية تقرن اسم لوكريسيا بكثير من مآسى الحب الخفية التى وقعت يومئذ بيلاط فيرارا

للبحث بقية
محمد عبير الله عثمان
المحامى

مجموعات الرسالة

سجل للأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

تتم مجموعة السنة الأولى بمجلة ٥٠ في مصر والسودان و ٦٠ في الخارج
تتم مجموعة السنة الثانية (المجلد الأول والمجلد الثانى) ٧٠ قرشاً
وتتم كل من المجلدين خارج القطر ٥٠ قرشاً